سلطان الأنا وصورة الأخر في رحلة ابن جبير

الطالب: شرايطة إبراهيم
جامعة: القيروان -تونس
كلية: الآداب والعلوم الإنسانية

ملخص:

لا يعد أدب الرحلة دراسة تاريخية و جغرافية فحسب , بل يعد أدب الرحلة شكلا فنيا أدبيا, كما يعد تجربة حقيقية بكل ما فيها من عمق وإثارة واكتشاف وخصوصية للرحالين فضلا عن فرديته و أصالته، إذ يقدم الرحالة انطباعات عميقة ومشاهدات متأنية للبلدان ويصفون عادات الشعوب و أهلها، لهذا اخترنا هذا الأنموذج من الآداب باعتباره يقوم على وصف حياة الآخر، ومقارنتها بما يعيشه الأنا بأنواعه المختلفة سوى الضيقة أو الواسعة، وكانت هذه الظاهرة بارزة وواضحة من خلال رحلة ابن جبير.

الكلمات المفتاحية: صورة، الأنا، الآخر، أدب الرحلة، ابن جبير.

Abstract:

The literature of travel is not only a historical and geographical study, it is also a literary experience. It is a real experience with all of its depth, excitement, discovery and uniqueness as well as its individuality and originality. Travelers offer deep impressions and careful observations of countries and describe the customs of people. We have chosen this kind of literature because it is a description of the other compared to the ego showing all the differences in its narrower or wider sense.This phenomenon was clear and permanent through the journey of IbnJubayr.

Keywords: image, ego, other, travel literature, IbnJubayr.

Résumé :

La littérature du voyage n'est pas seulement une étude historique et géographique, c'est aussi une expérience littéraire. C'est une expérience réelle avec toute sa profondeur, son excitation, sa découverte et son unicité, ainsi que son individualité et son originalité. Les voyageurs offrent des impressions profondes et des observations attentives des pays et décrivent les coutumes des gens. Nous avons choisi ce genre de littérature parce que c'est une description de l'autre par rapport à l'ego montrant toutes les différences dans son sens plus étroit ou plus large. Ce phénomène était clair et permanent à travers le voyage d'Ibn Jubayr

Mots-clés: image, ego, autre, littérature de voyage, Ibn Jubayr.

لا يعد أدب الرحلة دراسة تاريخية و جغرافية فحسب , بل يعد أدب الرحلة شكلا فنيا أدبيا, كما يعد تجربة حقيقية بكل ما فيها من عمق وإثارة واكتشاف وخصوصية للرحالين فضلا عن فرديته و أصالته، إذ يقدم الرحالة انطباعات عميقة ومشاهدات متأنية للبلدان ويصفون عادات الشعوب و أهلها وينقلون المواقف التي تعرض بها مما يسهم في تمثل القيمة و المعنى للرحلة فضلا عن قيمة تمثل جوانب مهمة من جوانب الحياة العربية.

وتتجلى الأهمية الأدبية للنصوص الرحلية في إدراج الرحالون في مذكراتهم الوصف الفني المتميز والذي بالإمكان أن يأخذ سبيله إلى عالم الأدب والخيال كنموذج لغناه بالكثير من المحسنات اللفظية والبلاغية من جمال اللفظ وحسن التعبير وارتقاء الوصف وبلوغه حدا كبيرا من الدقة فضلا عن تقديم أدب الرحلة صورا للفصل الإنساني وعلاقته بالآخر وهو ما من شأنه أن يطرح ثنائية الأنا والآخر في هذه الكتابات والتي تطرح جملة من الاختلافات

لمفهوم الثقافة والهوية والحياة الاجتماعية للآخر، مما يبرز سلطان الأنا في هذا الوصف فضلا عن إظهار الصراع بين الأنا والآخر وتقديم الأنا لصورة الآخر عبر انساق ثلاثة (السياسي، الديني، الثقافي) وهو بدوره يؤدي إلى تقديم صورتان للآخر الصورة الأولى تحوي تمزيق للآخر المختلف ثقافيا ودينيا وسياسيا وهذا لا ينفي ظهور الآخر المتقدم في كل المجالات في مقابل التدني في القيمة الدينية والثقافية أحيانا أما الصورة الثانية هي الانبهار بالآخر بمجرد الاتصال الأول مرة لكن هذا الانبهار سرعان ما يجف وتقل حدته أو حتى يزول حين الاقتراب أكثر من الآخر.

وتأسيسا على ما سبق تأتي هذه المداخلة للكشف عن طبيعة وحقيقة سلطة الأنا في النص الرحلي ودورها في تقديم صورة الآخر و أثرها فيها والخروج من خلال ذلك بتوصيفات لصورة الآخر انطلاقا من منظور الأنا الفاعل في أدب الرحلة الجزائري بالاستناد إلى رحلة ابن جبير التي تأخذانها كنموذج لهذه الدراسة .

مقدمة:

من المؤكد أنَّ الرحلة تمتلك ثراء فنيا ومعرفيا وقيمة سردية وتنوعات في الأسلوب، ولكن كل هته القيم التي تحويها الرحلة، إلَّا أنَّ النقاد والدارسين لم يولوا أهمية لهذا المؤروث المكنز، واقتصر نظرهم لها على أنَّها مجموعة من الوثائق التاريخية التي ينحصر دورها في نقل الأحداث والتواريخ، وخرائط جغرافية يهتدي بها المسافر، وظل هذا المنظور للرحلة قابعا في عقول الباحثين إلى وقت غير بعيد.

ولكن اليوم أصبحت الرحلة تستقطب رواد الأدب والنقد، على أنَّها تحمل عناصر أدبية وظواهر فنية، وإهمالها قتل لهذا الأدب الذي يجب أن ينال حظه ويدفع به في ميدان الدراسات الأدبية والنقدية الحديثة، وإذا نظرنا إلى مورثنا الأدبي نجد أنَّ أجدادنا تركوا لنا زخما كثيرا من الرحلات نحو الآخر ويؤكد هذا الكم الهائل مدى انفتاح العرب المسلمين على الثقافات الأخرى، ويسمح لنا تتبع هذه الرحلات على امتداد أكثر من ثمانية قرون، من تتبع الآخر وملاحظة تطوره وصورته وكيفية التعامل معه من منظور رحَّالتنا، وكيفية تشكل صورة الأنا من خلال الكلام عن الآخر، فالرحلة أدب ثري بهذه التفاصيل التي تناولت سرد كل ما يخص الآخر كيف لا ومحور كلامها يتناول الآخر من جميع جوانبه.

من هنا تجسد في أذهاننا تقديم دراسة بعنوان: "سلطان الأنا وصورة الآخر"كاشفين عن الصورة التي تشكلت في ذهن الرحالة العربي عن الآخر من مختلف جوانبه: القومية، والدينية، العرقية...وغيرها، وكيفية طغيان سلطان الذاتية عند هذا العربي واعتزازه بكل ما هو ذاتي سواء أكانت الذاتية بمعناها الضيق أو الواسع، وقد اتخذنا رحلة ابن جبير مدونة للدراسة البحث عن هذه الأنا ومدى تجسدها في هذه الرحلة ثم التعرض للآخر وكيف رسم هذا الراحلة الآخر في رحلتة وكيف صوره.

تعريف أدب الرحلة:

ممَّا لا شك فيه أنَّ وضع مفهوم جامع مانع لأدب الرحلة من الصعوبة بمكان لأنَّها تختلف عن أي جنس أدبي آخر الشعر والقصة والرواية، وذلك لتعدد مضامينها وأساليبها وتنوع خطاباتها فالرحلة تشبه بفناء بيت تفتح فيه مجموعة من الغرف: الجغرافيا والتاريخ والتصوف والأدب والسيرة الذاتية والتراجم والحكايات والرسائل والكرامات والشعر...وهذا كله يودي إلى صعوبة في وضع تعريف دقيق ومضبوط لهذا الأدب[1].

فالرحلة ظاهرة أدبية، تتداخل فيها عدَّة عناصر أدبية وخارج أدبية، فهي ذلك الشكل النصي المفتوح وذلك نتيجة مجموع مكونات ثقافية واجتماعية وسياسية متداخلة، "أدب الرحلات إذن، هو ما يمكن أن يوصف بأدب الرحلة الواقعية، وهي الرحلة التي يقوم بها الرحالة إلى بلد من بلدان العالم، ويدون وصفا له، يسجل فيه مشاهداته وانطباعاته بدرجة من

الدقة والصدق وجمال الأسلوب والقدرة على التعبير"[2]، يلخص صاحب التعريف أدب الرحلة على أنَّه مجموعة من الأحداث والمشاهد والمواقف التي يسردها الراحلة خلال تنقلاته بين البلدان وينقل من خلال صورة المجتمعات الأخرى.

فالرحلة إذن؛ خطاب تنشئه ذات مركزية، وهي ذات الرحالة، تحكي فيها أحداث سفر عاشتها وتصف الأماكن المزورة، والأشخاص الذين لقيتهم، وما جرى معهم من حديث، وغايتها في ذلك تعريف القارئ بالشعوب الأخرى وتقاليدها وأفعالها إضافة إلى عنصر الإمتاع الذي تضمنه قراءة هذه الرحلات[3].

ويقول شعيب حليفي في خضم كلامه عن أدب الرحلة: "تأطرت الرحلة، مثلها مثل النصوص السردية الطويلة، التي شكلت الإرث التراثي الممتلئ بالخيال وببصمات الواقع، وبثقافة العين، ووجهات نظر مشتتة حول الآخر، وبإضاءات للأنا/الذات والنحن. ونسجت وشائج متعالقة مع أشكال دينامية تلمع سرود التجربة وتحفزها وتطعمها من أجل معرفة الذات باعتبارها وسيلة للمعرفة والانفتاح عن الآخر"[4]، فالرحلة هي نص لا يختلف عن بقية النصوص السردية، فهي مزيج بين الخيال والواقع، تنقل لنا ومضات عن حياة الآخر، وتشكل لنا صورة حول الذات والآخر.

رحلة ابن جبير:

من الرحلات التي قام بها الرحالة الأندلسيون، وكانت هذه الرحلة باتجاه المشرق الإسلامي، قصد الحج ، وابتدئ بتقييدها يوم الجمعة الموفي لثلاثين من شهر شوال سنة ثمان وسبعين وخمسمائة على متن البحر[5].

وهذه الرحلة ثمرة لثلاث رحلات قام بها، أهمها رحلة استغرقت أكثر من ثلاث سنوات وقد بدأها في يوم الاثنين في التاسع عشر من شوال سنة 578ه. وختمها في يوم الخميس في الثاني والعشرين من شهر محرم سنة581ه.

وقد جاء هذا الكتاب حافلا بالمشاهد والتجارب التي اكتسبها أثناء تجواله في عجائب البلدان والمدن، ورؤيته لغرائب المشاهد، واطلاعه على الشؤون والأحوال السياسية والاجتماعية والأخلاقية التي كانت سائدة في تلك الحقبات من الزمن[6].

التعريف بابن جبير:

هو أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكناني، الأندلسي، الشاطبي، البنلسي. ولد في بلنسة سنة 539ه. وقد شغف بعلوم الدين فسمعها من أبيه في شاطبة، وأخذ القرآن عن أبي الحسن ابن أبي العيش.

وقد قامت شهرته عن كتابه الذي عرف باسمه 'رحلة ابن جبير'.

وقد كانت وفاة ابن جبير في سنة 614ه. في آخر رحلة قام بها إلى مصر والإسكندرية حيث أقام هناك محدثا[7].

الأنا والآخر في رحلة ابن جبير:

إنّ من مزايا الرحلة الأندلسية التي تنتمي لها رحلة ابن جبير أنّها جاءت في مواجهة بين الذات والآخر لاكتشاف الآفاق الأخرى، والتكيف مع القيم الإنسانية، وتوضيح هذه الصورة من خلال تسليط الضوء على ملامح الحياة الثقافية، والاجتماعية والدينية، للذات ولآخر في تلك العصور.

وإذا نظرنا إلى الآخر عند الرحالة الأندلسيين وجدنا أنه يتضمن فئات متعددة، فهناك العرب المسلمون، والمسلمون من غير العرب، وهناك أيضا أهل الذمة من أهل الكتاب، مثل: اليهود والنصارى، وسنرى بالتفصيل نظرة الرحالة ابن جبير إلى الآخر وكيفية طغيان الذات وسيطرتها من خلال تعرضه للآخر[8]:

الآخر النصراني:

لقد كانت رحلة ابن جبير مليئة بالأخبار عن النصارى فيقول واصفا ملك عكا النصراني: "وهذا الخنزير صاحب عكا، المسمى عندهم بالملك، محجوب لا يظهر، وقد ابتلاه الله بالجذام، فعجل له سوء الانتقام، وقد شغلته بلواه في صباه، عن نعيم دنياه، فهو فيها يشقى، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى"[9] (رحلة ابن جبير.

ويذكر ابن جبير مدينة مسينة الواقعة بجزيرة صقلية بقوله: "هذه المدينة موسم تجار الكفار، ومقصد جواري البحر من جميع الأقطار، كثيرة الأرفاق برخاء الأسعار، مظلمة الآفاق بالكفر لا يقر فيها لمسلم قرار، مشحونة بعبدة الصلبان، تغص بقاطنيها، وتكاد تضيق ذرعا بساكنيها مملوءة نتنا ورجسا، موحشة لا توجد لغريب أنسا"[10].

وتجسد الآخر الديني في رحلة ابن جبير في النصارى وتظهر لنا صورة النصارى من خلاله على أنّهم مغتصبون معتدون على حدود الدين وأنَّهم أهل سلب ونهب ومؤامرات، ورمزا للمعتدي على أراضي المسلمين، وأماكنهم المقدسة.

كما ارتبط الصليب عند ابن جبير بالقذارة والفحش ففي معرض كلامه على مدينة عكا، المدينة التي كانت مقبع الإفرنج كما يسميها فقال: "هي قاعدة مدن الإفرنج بالشام، ومحط الجواري المنشآت في البحر كالأعلام، مرفأ كل سفينة، والمشبهة في عظمها بالقسطنطينية، مجتمع السفن والرفاق، وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق، سككها وشوارعها تغص بالزحام، وتضيق فيها مواضع الأقدام، تستعر كفرا وطغيانا، وتفور خنازيرا وصلبانا، زفرة قذرة، مملوءة كلها رجسا وعذرة"[11].

ولم يكن كلام ابن جبير عن النصارى عن السلبيات فقط بل تعرض لمحاسنهم، فقد وصف ملك صقلية (غليام) الذي يظهر إعجابه بالمسلمين واستعمالهم في الإدارة، بقوله: "وشأن ملكهم هذا عجيب في حسن السيرة واستعمال المسلمين واتخاذ الفتيان المجابيب، وكلهم أو أكثرهم كاتم إيمانه متمسك بشريعة الإسلام، وهو كثير الثقة بالمسلمين وساكن إليهم في أحواله والمهم من أشغاله، حتى أنَّ الناظر في مطبخته رجل من المسلمين، وله جملة من العبيد السود المسلمين، وعليهم قائد منهم ....وهم أهل دولته والمرتسمون بخاصته"[12]، لم يخف ابن جبير إعجابه بهذا الملك ومعاملته للمسمين الذين كانوا يعيشون تحت سلطته، بل جعلهم من حاشيته ورجال قصره، ومع ذلك فإن ابن جبير يراه أخرا دينيا ولا يخرجه من دائرة الكفر، ويدعو الله أن ينقذ المسلمين من شره وفتنته "...والله يعيذ المسلمين من الفتنة به بمنه...وكفى الله المسلمين عاديته وبسطته"[13].

ومن الجوانب الإيجابية التي ذكرها ابن جبير عن النصارى، ما ورد في حديثه عن نصارى جبل لبنان حيص يصفهم بقول: "ومن العجب أنَّ النصارى المجاورين لجبل لبنان إذا رأوا به بعض المنقطعين من المسلمين جلبوا لهم القوت وأحسنوا إليهم، ويقولون: هؤلاء ممن انقطع إلى الله عزَّ وجل فتجب مشاركتهم"[14].

ورغم إعجاب ابن جبير ببعض تصرفات النصارى إلَّا أنَّه يرى أنَّ ذلك فخا يريدون أن يوقعوا به المسلمين في الشرك وجذبهم نحو دينهم[15]. مذكرة الرحلة الأندلسية.

وفي كلام ابن جبير عن الآخر دينيا نجده يصورهم بطريقة شنيعة وينعتهم بأوصاف سيئة وقبيحة، ومن خلال تصوير الآخر تتراء لنا الذات المسلمة والموجودة ضمنيا في كلامه، حيث المسلم هو ذلك الشخص العادل النظيف الطاهر والمدن الإسلامية هي تلك المدن المنظمة التي تتخللها شوارع رائعة.

الآخر المكاني:

لم يرسم ابن جبير الصور السيئة لغير المسلمين بل حتى من الذين يدينون الدين الإسلامي والذين يعتبرون آخرا للانتساب المكاني البعيد وخاصة من المشارقة، فيصف ابن جبير حالته عند وصوله إلى الإسكندرية فيقول: "فمن أول ما شاهدناه فيها يوم نزولنا أن طلع أمناء إلى المركب من قبل السلطان بها لتقييد ما جلب فيه، فأستحضر جميع من كان فيه من المسلمين واحد واحدا وكتب أسماؤهم وصفاته وأسماء بلادهم، وسئل كل واحد عما لديه من سلع ليؤدي زكاة ذلك كله دون أن يبحث عما حال عليه الحول من ذلك أو لم يحل وكان أكثرهم متشخصين لأداء الفريضة لم يستصحبوا سوى زاد لطريقهم، فلزِّموا أداء زكاة ذلك دون أن يسأل أحال عليه الحول أم لا"[16]. ويضيف في حديثه عما حدث له في مناطق أخرى من مصر فيقول: "وببلاد هذا الصعيد المعترضة في الطريق للمسافرين والحجاج، كإخميم وقوص ومنية

ابن الخصيب (وهذه كلها مدن) من التعرض لمراكب المسافرين وتكشفها والبحث عنها وإدخال الأيدي إلى أوساط التجار، فحصا عما تأبطوه أو احتضنوه من دراهم أو دنانير، ما يقبح سماعه وتشنع الأحدوثة عنه، كل ذلك برسم الزكاة دون مراعاة لمحلها أو ما يدرك النصاب منها"[17].

ومن خلال التعبير يظهر أنَّه استهجن هذه المواقف التي صدرت عن هؤلاء المصريين، ولم يستسغها وذلك دليل على عدم قبولها في الأندلس وعدم شيوعها.

ويصف في رحلته أهل عيذاب فيقول: "وهذه الفرق من السودان المذكورين فرقة أضل من الأنعام سبيلا وأقل عقولا لا دين لهم سوى كلمة التوحيد التي ينطقون بها اظهارا للإسلام، ووراء ذلك من مذاهبهم الفاسدة ما لا يرضى ولا يحل، ورجالهم ونساؤهم عراة إلَّا خرقا يسترون بها عوراتهم، وأكثرهم لا يسترون. وبالجملة هم أمة لا أخلاق لهم، ولا جناح على لاعنهم"[18].

فبالرغم من اعتناق هذه الأمة للإسلام إلَّا أنَّهم يتصرفون بتصرفات منافية له، وكما قال ابن جبير فهم لا يملكون من الإسلام إلا كلمة التوحيد التي ينطقون بها اظهارا للإسلام، ووراء ذلك مذاهب فاسدة أباحت لهم تصرفات أدخلهم بها ابن جبير إلى زمرة الأنعام.

وفي موقف أخر يتكلم ابن جبير عن فرق موجودة في الحجاز وعن كيفية استغلالهم للحجاج فيقول: "وأكثر هذه الجهات الحجازية وسواها فرق وشيع لا دين لهم قد تفرقوا على مذاهب شتَّى. وهم يعتقدون في الحاج ما لا يعتقد في أهل الذمة، قد صيروهم من أعظم غلاتهم التي يستغلونها: ينتهبون انتهابا، ويسببون لاستجلاب ما بأيديهم استجلابا، فالحاج معهم لايزال في غرامة ومؤونة إلى أن ييسر الله رجوعه إلى وطنه"[19]؛ صور لنا ابن جبير تعامل أهل الحجاز وتصرفاتهم مع حجاج بيت الله وارهاقهم لهم بالغرامات والضرائب التي افترضوها عليهم ما داموا في الحج، ويتضح لنا من كلامه الحيرة وعدم تقبل ما يعانيه الحاج من هؤلاء الجشعة، ومن خلال كلامه تتضح لنا صورة الأنا الكريمة التي تقدس حرمات الله وتوقر من أتى هذا البيت الكريم زائرا.

وإنَّ مما استوقفنا في رحلة ابن جبير كلامه عن أهل العراق الذين يعتبون عنده آخرا باعتبار الموقع الجغرافي، فأتى وصفه لهم كالآتي: "وأمّا أهلها فلا تكاد تلقى منهم إلا من يتصنع بالتواضع رياء، ويذهب بنفسه عجبا وكبرياء، يزدرون الغرباء، ويظهرون لمن دونهم الأنفة والإباء، وستصغرون عمن سواهم الأحاديث والأنباء، قد تصور كل منهم في معتقده وخلده أنّ الوجود كله يصغر بالإضافة لبلده، فهم لا يستكرمون في معمور البسيطة مثوى غير مثواهم، كأنّهم لا يعتقدون أنّ لله بلادا أو عبادا سواهم، يسحبون أذيالهم أشرا وبطرا، ولا يغيرون في ذات لله منكرا، يظنون أنّ أسنى الفخار في سحب الإزار، ولا يعلمون أنّ فضله بمقتضى الحديث المأثور، في النار، يتبايعون بينهم بالذهب قرضا، وما منهم من يحسن لله فرضا، فلا نفقة فيها إلا من دينار تقرضه، وعلى يدي مخسر للميزان تعرضه، لا تكاد تظفر من أهلها بالورع العفيف، ولا تقع من أهل موازينها ومكاييلها إلا على من ثبت له الويل في سورة التطفيف، لا يبالون في ذلك بعيب، كأنّهم من بقايا مدين قوم شعيب. فالغريب فيهم معدوم الإرفاق، ومتضاعف الإنفاق، لا يجد من أهلها إلاَّ من يعامله بنفاق، أو يهش إليه هشاشة انتفاع واسترفاق"[20].

فكل هذه الصفات السيئة لا حظها ابن جبير وهو في العراق، حيث رأى أنَّ أهلها يتصنعون التواضع ويراؤون بأعمالهم وأفعالهم، إضافة إلى تكبرهم وترفعهم عن الآخرين، ثم أخذا يعدد صفاتهم السيئة كسحبهم للإزار الطويل تكبرا وخيلاء، وتصنعهم التواضع والورع، وتطفيفهم في الميزان، ومعاملتهم السيئة للغريب، كل هذه الصفات وغيرها تجسدت في الآخر جغرافيا، في المقابل نرى الذاتية الأندلسية التي لم تستسغ تصر الآخر واستغربته واستنكرته، لتظهر لنا الصفات الذاتية المتجسدة في الشخصية الأندلسية على غرار التواضع، وحب الآخر وحسن معاملته، والتورع في أكل الحلال...وغيرها.

الذاتية القومية:

وتظهر الذاتية القومية الطاغية عند ابن جبير في كثر من المواقف تجده يمدح تصرفات العرب وحسن تنظيمهم وتعليمهم، فمن قوله وهو يصف مدينة بغداد "وأمَّا حماماتها فلا تحصى عدة، ذكر لنا أحد أشياخ البلد أنَّها بين الشرقية والغربية نحو الألفي حمام، وأكثرها مطلية بالقار مسطحة به، فيخيل للناظر أنَّه رخام أسود صقيل...وأمَّا المساجد بالشرقية والغربية فلا يأخذها التقدير فضلا عن الإحصاء. والمدارس بها نحو الثلاثين، وهي كلها بالشرقية، وما منها مدرسة إلاَّ وهي يقصر القصر البديع عنها وأعظمها وأشهرها النظامية وهي التي ابتناها نظام الملك...ولهذه البلاد في أمر هذه البلاد شرف عظيم وفخر مخلد، فرحم الله واضعها الأول ورحم من تبع تلك السنن الصالحة"[21].

ومن المناقب القومية والدينية التي تغنى بها ابن جبير في عهده كلامه عن صلاح الدين وعدله، فكلامه في هذا المضمار تشع منه الذاتية الساطعة التي آثر أن يرسمها ويصورها فيقول: "ومن مفاخر هذا السلطان المزلفة من الله تعالى وآثاره التي أبقاها ذكرا جميلا للدين والدنيا: إزالته رسم المكس المضروب على الحجاج مدة دولة العبيديين..فترتب الشكر له على كل من يعتقد من الناس أنَّ حج البيت الحرام احدى القواعد الخمس للإسلام، حتى يعم جميع الآفاق ويوجب الدعاء له في كل صقع من الأصقاع وبقعة من البقاع...فمحا هذا السلطان هذه البدع اللعينة كلها وبسط العدل ونشر الأمن"[22].

ويتجاوز ابن جبير الفيافي الجبال ليصل إلى دمشق ويقدم لنا صورة تكاد تلامس أذهاننا عن هذه المدينة بألفاظ وكلام كله غبطة وارتياح وطمأنينة ومدح لهذه المدينة العربية، فيقول: "هي جنة المشرق، ومطلع حسنه وهي خاتمة بلاد الإسلام التي استقريناها، وهي عروس المدن التي اجتلیناها، قد تحلت بأزاهير الرياحين، وتجلت في حلل سندسية من البساتين، وحلت من موضوع الحسن بالمكان المكين...والله صدق من قال: إن كانت الجنة في الأرض فدمشق لا شك فيها، وإن كانت في السماء فهي بحيث تسامتها وتحاذيها"[23]، من هذا القول نرى أن ابن جبير تكلم عن هذه المدينة بإعجاب غير متناهي، وإذا ما قارنا حديثه هذا بكلامه عن عكة التي تميزت في نظره بالفسق والكفر والنتن، من هنا نستطيع أن نميز مدى الإعجاب بالذات ومدحها بكل ما هو جميل، في حين نسب كل ما هو قبيح للآخر.

الذاتية الدينية:

بعد التجوال الرحلة التي أجراها ابن جبير إلى المشرق العربي، واكتشف أخباره وقضاياه الاجتماعية والعقائدية وعاداته وتقاليده ومدى تمسكه بالدين وفي كل مرَّه يحدث مقارنة ضمنية بين ذاته وبين الآخر سواء كان الآخر دينيا أو جغرافي (أي انتماء جغرافي غير موحد)...إلخ.

إلاَّ أنَّا نرى موقفا أغدق فيه ابن جبير بذاتيته ورمى فيه بكامل ثقله، حيث وضع عنوان في رحلته المكتوبة 'لا إسلام إلَّا في المغرب' ومما ورد تحت هذا العنوان قوله: "وليتحقق المتحقق ويعتقد الصحيح الاعتقاد أنَّه لا إسلام إلَّا ببلاد المغرب لأنَّهم على جادة واضحة، وما سوى ذلك مما بهذه الجهات المشرقية فأهواء وبدع، وفرق ضالة وشيع،إلَّا من عصم الله عزَّ وجل من أهلها، كما أنَّه لا عدل ولا حقَّ ولا دين على وجهه إلَّا عند الموحدين ، أعزَّهم الله فهم آخر أئمة العدل في الزمان. وكل من سواهم من الملوك في هذا الأوان فعلى غير الطريقة، يعشرون تجار المسلمين كأنَّهم أهل ذمة لديهم، ويستجلبون أموالهم بكل حيلة وسبب، ويرتكبون طرائق من الظلم لم يسمع بمثلها"[24]؛ من خلال ما أوردنا في هذا النص الذي تكلم فيه ابن جبير عن الإسلام في المغرب الذي يمثل في نظره الإسلام الصحيح الذي على الجادة والطريقة المستقيمة، ذاكرا ومقارنا المشارقة وكيفية تعاملهم مع الدين الإسلامي الذي يمثل لهم مجرد كلمة توحيد يتلفظ بها، أمَّا الدين الحقيقي أو الإسلامي الحق هو ما وجد في المغرب وما تمثلته الدولة الموحدية التي اعتبرها رمز للعدل والحكم الراشد في هذا الزمان متعرضا لظلم الحكام المشارقة للرعية والتجار المسلمين الذين أرهقوهم بالضرائب وسلب أموالهم من دون أسباب. وتتراء لنا هنا الصورة الذاتية للشخصية المغربية التي رسمها ابن جبير والتي تتمثل في

تمسكها بالدين الإسلامي السليم واعتبرها رمزا للحكم العادل، في حين وضع الصورة المعاكسة للآخر المشرقي فالأنـــا والآخر تضيف وتتسع عند ابن جبير، فالأنا قد يكون آخرا في بعض الموقف، والآخر قد يكون أنا في مواقف أخرى.

خاتمة:

بعد تنقلات سريعة في رحلة ابن جبير، وبحثا عما مدى حضور الآخر في هذه الرحلة، وكيف تجسدت صـــورة الأنا عنده.

فقد كانت هذه الرحلة كغيرها من الرحلات عبارة عن مجموعة سردية تنقل صور الآخـــر للقـــارئ ممزوجـــة بالأسلوب الفني المشوق، ومن خلال بحثنا عن الأنا والآخر في هذه الرحلة تراءت لنا مجســـدتا فـــي المجموعـــة مـــن الأشكال:

أنّ الأنا قد ترد مضمرة ،وهي التي تتضح في كلام ابن جبير عن الآخر، وإظهار دهشته منه سواء من معاملاته أو عاداته أو تقاليده أو دينه.

يتوسع مفهوم الأنا ويضيق عند ابن جبير فالذات الموسعة هي التي تشمل الدين والقومية وتشمل الآخر القـــومي، أمَّا الذات بالمعنى الضيق هي الذات المكانية التي تضم كل شيء قريب.

في بعض الأحيان نجد طغيان الذات عند ابن جبير كأن يمدح أهل المغرب ويذم المشارقة ويبالغ في الذم.

في كثير من الأحيان نجد ابن جبير ينقل صور سلبية وسيئة عن الآخر سواء أكان قومي أو ديني، في حين نجده يمدح الذات ويرفع من شأنها.

فالأنا عند ابن جبير ترد مضمرة وتستنتج من خلال كلامه عن الآخر، حيث يكون الآخر كمرآة معاكسة للـــذات، وترد ظاهرة حيث يمجد الأنا ويمدحها بصورة واضحة.

تعدد الآخر عند ابن جبير فمرة يكون ديني ويظهر ذلك في كلامه عن النصارى ومرة يكون قومي مثل كلامـــه عن المشارقة.

---

[1]-شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي: التجنّس آليات الكتابة خطاب المتخيل، الهيئة العامة لقصور الثقافة، كتابات نقدية 121، أفريل2002، دط، ص42.

[2]-أدب الرحلة في المغرب العربي (مذكرة دكتوراه)، جميلة روباش، إشراف: محمد بن لخضر فورار، كليـــة الآداب واللغـــات، جامعة محمد خيضر/بسكرة، 2015/2014، ص 20.

[3]-المرجع نفسه، ص21.

[4]- شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي: التجنّس آليات الكتابة خطاب المتخيل، ص70.

[5]-ينظر: رحلة ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، الطبعـــة الأخيـــرة، 2000م، ص7.

[6]-ينظر: المصدر نفسه،ص5.

[7]-ينظر: المصدر نفسه، ص6.

[8]-ينظر: صورة الآخر في أدب الرحلات الأندلسية (رسالة دكتوراه)، بلال سالم الهروط، إشراف: فايز القيسي، قسم اللغة العربية، جامعة مؤته، الأردن، 2008م، ص18.

[9]- رحلة ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير، ص540

[10]-المصدر نفسه، ص66.

[11]- المصدر نفسه، ص49

[12]-المصدر نفسه، ص267.

[13]-المصدر نفسه، ص276.

[14]-المصدر نفسه، ص234.

[15]-ينظر: صورة الآخر في أدب الرحلات الأندلسية (رسالة دكتوراه)، بلال سالم الهروط، ص23.

[16]-رحلة ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير، ص13

[17]-المصدر نفسه، ص35.

[18]-المصدر نفسه، ص44.

[19]-المصدر نفسه، ص43.

[20]-المصدر نفسه، ص174.

[21]-المصدر نفسه، ص183.

[22]-المصدر نفسه، ص29

[23]-المصدر نفسه، ص211.

[24]-المصدر نفسه، ص50.